

أحاديث رمضان ١٤٢٦ هـ - الفوائد - الدرس (٣٦٠٩) : عشرة أشياء ضائعة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٤٠٥-١٠-١٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

مقدمة عن النفس:

أيها الإخوة الكرام، يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: " كلما ازدت علمًا ازددت علمًا بجهلي ".

ويقول بعض العلماء الغربيين: " لم تبتل بعض أقدامنا ببحر المعرفة "، فإذا اقتربنا من موضوع الإنسان كل التقدم في كشف قوانين الجسم أما قوانين النفس لا نزال في البداية، لكن هذا لا يمنع من أن نكتشف قوانين النفس من خلال القرآن و حديث سيد الأنام الانطلاق من قوله تعالى:

(وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَلَأْلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس]

أي ما السنن التي تنظم النفس البشرية؟ من هذه السنن أنها تكتشف خطأها بذاتها:

(وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَلَأْلَمَهَا)

[سورة الشمس]

ذاتياً:

(فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس: الآية ٨]

من هذه السنن أن: يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها.

من هذه السنن، إلا ينتاب النفس لا حدود له من الخسارة، أو من الضياع؟ كلاماً يصب في خانة واحدة، الإنسان إذا تاجر، و بذل جهداً خيالياً، ثم خسر يتالم أشد الألم، إذا ضيع سندًا مالياً بمبلغ فلكي، و ضاع المبلغ عليه يتالم ألمًا بلا حدود، إذا اشتري أرضاً، و باعها بثمن بخس، ثم اكتشف أنه كان من الممكن أن يربح بها مئة ضعف يحترق قلبه من شدة الندم.

محور هذا الدرس أن الإنسان يتالم من الخسارة ألمًا لا حدود له، و يلتقي مع الخسارة الضياع، وأكبر خسارة يمنى بها الإنسان إذا خسر الدار الآخرة، لذلك، يا رب، ماذا فقد من وجدك؟ لم يفقد شيئاً، و ماذا وجد من فقدك؟ لم يجد شيئاً، لذلك ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه الفوائد ذكر هذه الفائدة قال: " عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها "، شيء ثمين جداً، لكنك لم تنتفع به، لو أنه معك

ورقة مالية، سند بمليون دولار، وقد وضع هذا السند على ظهره فظنته ورقة بيضاء، كتبت عليها كلمات لا معنى لها، ثم مزقتها، وألقيتها في المهملات، ثم اكتشفت أن هذه الورقة البيضاء التي كتبت عليها كلمات لا معنى لها وألقيتها في المهملات هي سند بمليون دولار، وأنك في أمس الحاجة إليه كم تتألم؟

الآن لو كلفت بضربيه باهظة قد تأتي جلطة، لو أن الضريبة فوق ما ينبغي، أو لو أن الغرامة فوق ما ينبغي، كم من حادث الآن يصاب بخثرة في الدماغ فوراً، بسكتة قلبية فوراً، بسماع خبر سيء.

إذاً هذه النفس مجبولة و مفطورة على ألم لا حدود له من الضياع و الخسارة:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة الزمر: الآية ١٥]

ما هي الأشياء العشر الضائعة التي يكتشف الإنسان بعد حين أنه خسر بها خسارة لا تعوض؟

أولاً: " علم لا يعمل به ":

و عالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن
تعلموا ما شئتم فوالله لن تؤجروا حتى تعلموا بما علمتم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَفْوِلُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتَنَا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَفْوِلُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[سورة الصاف]

أيها الإخوة الكرام، أن تعلم شيئاً، و لا تفعله، و الفرق بينهما كأن تنطق بلسانك بكلمة مليون دولار، ولا تملكها، أما إذا طبقته امتلكت هذا المبلغ، إذا مليار و ثلاثة مليون، ويوجدرأي، مليار وأربعين مليون إنسان مسلم في الأرض لا وزن لهم إطلاقاً، لأنهم يعرفون الأمر، ولا يفعلونه:
(غَيْرُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الصَّالِينَ)

[سورة الفاطحة: الآية ٧]

الضل ما عرف، وانحرف، أما المغضوب عليه فهو الذي عرف، وانحرف.
أول شيء: " علم لا يعمل به "، لو طبق المسلمون واحد بالمئة ألف مما يعملون لكانوا أقوى أمة في الأرض، لكن المعلومات في واد، و حرکتهم في الحياة في واد آخر.
علم لا يعمل به،

ثانياً: عمل لا إخلاص فيه:

الآن: " وعمل لا إخلاص فيه، و لا اقتداء "، أروع مثل شبهه الإمام الغزالى إنسان ذاہب إلى الحج، فحمل دابته التي يركبها عشرات الأكياس من الرمل، لم ينتفع بها إطلاقاً، لكنها كانت عبئاً

عليه، حمولة مر هقة ثقيلة متعية أجهدت الدابة، و أجهدت من يركب الدابة، والمادة ليست نافعة إطلاقاً، عمل لا إخلاص فيه، ولا اقتداء، هذا البند الثاني.

ثالثاً: مال لا ينفق منه:

" ومال لا ينفق منه، فلا يستمع به جامعه في الدنيا، و لا يقدمه أمامه يوم القيمة "، المال إما أن تستمتع به، و إما أن يكون لك ذخراً يوم القيمة، و من قدم ماله أمامه سره اللحاق به، لو أن إنساناً اتخاذ قراراً مصيريأً بمعادرة بلده، لكن قبل أن يغادر باع كل أملاكه، و باع كل بيته و مركباته، و جمع مكل ثرواته، و حولها إلى بلد أجنبي، الآن أمنيته الوحيدة أن يلحق بماله، و كل إنسان قدم ماله أمامه، أنفقه في سبيل الله يسره اللحاق به.

البند الثالث: " مال لا ينفق منه "، يقول لك: كلفني العرس ثلاثة وعشرين مليوناً، تطالب بصدقة خمسة آلاف يقول لك: الوقت ضيق، ولا يوجد ندييات، يدفع على شهواته وزواج الملايين، يأتي بفنانة لعرسه قبل أشهر، يفتخر في أي مكان جلس فيه أن هذه الفنانة أعطته سعراً خاصاً جداً، أربعين ألف دولار، مع أن قيمتها مئة ألف، مليوناً ليرة تنفق في ساعة، وآلاف الشباب يتمون غرفة يتزوجون فيها ؟

إن أمسك ماله أمسكه بخلاً وتقديرأً، و إن أنفقه أنفقه إسرافاً وتبذيرأً، " ومال لا ينفق منه، فلا يستمع به جامعه في الدنيا، و لا يقدمه أمامه إلى الآخرة "، ومشكلة البخيل أنه يعيش فقيراً ليموت غنياً. والله حدثني أخ له صديق إذا جلس معه يهم أن يعطيه مساعدة، فلما توفي ترك ملايين مملينة، من خلال حديثه وهيئته ووضعه قد يخطر لك أن تساعدوه، فلما مات وجد أنه في حوزته ملايين مملينة، فالمال الذي لا ينفق منه لا يستمع به جامعه في الدنيا، و لا يقدمه أمامه إلى الآخرة. صار العلم لا يعمل به، والعمل لا إخلاص فيه، والمال لا ينفق منه:

(وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا ثُلُفُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى التَّهْكِمِ)

[سورة البقرة: الآية ١٩٥]

رابعاً: قلب فارغ من محبة الله:

الآن: " قلب، لكن فارغ من محبة الله "، مستحيل أن تتهمر من عينه دمعة، دمعة خشية أو حب أو سعادة بالقرب من الله عز وجل، قلب فارغ ليس فيه أشواق، فيه دنيا، فيه سيارات، فيه مال، كل شهوات الدنيا في القلب، لذلك أهل الدنيا إذا جلسوا في مجلس علم يأتיהם نعاس لا يحتمل، ممكن أن يحذثك عشر ساعات بأمور الدنيا، بأسعار العملات، و البورصة، و الاستثمار عبر الإنترنت، عشر ساعات، عندما يجلس بمجلس علم لا يحتمل، يقول لك: يا أخي تعبان، وبينما، " و قلب فارغ من محبة الله، و الشوق إليه و الأنس به ".

خامساً: بدن معطل من طاعة الله، و خدمة عباده:

الآن: " و بدن معطل من طاعة الله، و خدمة عباده "، أي يتحرك، يبذل جهداً، يعاون إنساناً، يستقبل إنساناً بوقت راحته، يعاون إنساناً بشراء حاجة، يجلس مع إنسان، يزور فقيراً، و الله لا يوجد وقت، إذا دعاه الغني يلبي الدعوة فوراً، أما إذا دعاه فقير في أطراف المدينة فيعتذر دائماً، " و بدن معطل من طاعة الله، و خدمة عباده،

سادساً: محبة لا تتقيد برضاء المحبوب، و امثال أمره:

و محبة لا تتقيد برضاء المحبوب، و امثال أمره "، محبة فارغة، دعوى، كلام للاستهلاك، تعبير فارغ، ظاهرة صوتية:

تعصي الإله و أنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

" علم لا يعمل به، و عمل لا إخلاص فيه، و مال لا ينفق منه، و قلب فارغ من محبة الله، و بدن معطل من طاعة الله، و خدمة عباده، و محبة لا تتقيد برضاء المحبوب، و امثال أوامرها، و وقت معطل عن استدراك ما فرط صاحبه، أو اغتنام بر أو قرب من الله "، ممکن الساعـة الثالثـة بالليل يلعب طاولة، ممکن أن يتبع المسلسلات كلها، وينغمـس في موضوع المسلـسل، وأحيـاناً يبـكي، لا ينـقصـه هـمـومـ، أـماـ أن يـجـلـسـ فيـ مجـلـسـ عـلـمـ، يـقـولـ لـكـ: وـ اللهـ أـنـاـ لـأـرـتـاحـ بـهـذـهـ الجـلـسـةـ، أـرـيدـ كـرـسـيـاـ، لـأـيـقـبـلـ الإـلـمـ يـقـرـأـ كـلـمـةـ زـيـادـةـ، قـرـأـ مـدـهـامـتـانـ، قـالـ لـهـ: أـطـلـتـهـ، مـدـهـامـةـ وـاحـدـةـ، مـدـهـامـتـانـ بـرـكـعـةـ وـاحـدـةـ؟

" سابعاً: فكر يجول فيما لا ينفعه:

وفكر يجول فيما لا ينفعه "، تفكير، تدخل بمتاهات، أسعار العملات، أسعار السيارات، يتتابع الأحداث السياسية بدقة بالغة، يملك تحليلات، و هو لا يملك أن ينطق بكلمة، هذه ظاهرة عجيبة بوجود الإخباريات المتعددة، و التحليلات، و المراسلين، تجده يتتابع، و يتبع، أصبح موسوعة بالسياسة، و ليس يسمع منك حرفاً، يشغل بشيء لا يقدم و لا يؤخر، الوضع صعب جداً، الأمة من أمرها لا تملك شيئاً، أنت فقط تتتابع الأخبار إلى ما لا نهاية.

"ثامناً: خدمة من لا تقربك خدمته من الله:

و فكر يجول فيما لا ينفعه، و خدمة تقدم "، خدمة لكن لمن ؟ الخدمة من لا تقربك خدمته من الله، و لا تعود عليك بصلاح دنياك، خدوم لكن لأشخاص، مجير لشخص، و الإنسان لئيم أحياناً، تخدمه أربعين سنة يبوء بك، تخدمه عمرًا ب كامله يتذكر لك، يخدم، خدوم صيغة مبالغة، لكن يخدم إنساناً لئيماً، لذلك قالوا: إما أن تكون عبداً لله، و إما أن تكون عبداً لعبد لئيم.

أعلمه الرمادية كل يوم فلما اشتدى ساعده رمانى
و كم علمته نغم القوافي فلما قال قافية هجاني

تاسعاً: خوفك و رجاؤك لمن ناصيته بيد الله:

الآن: "خوفك و رجاؤك لمن ناصيته بيد الله" ، تخاف من إنسان، و هو عبد الله، و ترجو إنساناً، و هو عبد الله، الخوف منه لا معنى له، و الرجاء به لا معنى له. تصور جندياً في جيش، والده قائد الجيش، جاء مساعد هدده، فكاد يموت من البكاء خوفاً منه ؟ والدك قائد الجيش كلها، يوجد بعد عن الواقع بعضاً شديداً، و خوفك هذا الخوف لا معنى له، و ضائع، و رجاؤك لمن ناصيته بيده، و هو أسير في قبضته، و لا يملك لنفسه حذراً، و لا نفعاً، و لا موتاً، و لا حياة، و لا نشوراً.

إذا يوجد عندنا خوف ضائع، أن تخاف مما سوى الله، و عندنا رجاء ضائع، أن ترجو غير الله، لذلك الإنسان لا يليق به أن يكون لغير الله، فإذا كان لغير الله احترق نفسه، أنت أكبر بكثير من أن تجير لإنسان، من أن تكون تابعاً لإنسان، من أن تكون بوفاً لإنسان، أنت الله، لا يليق بكرامتك إلا أن تكون الله.

عاشرأ: إصابة القلب، و إصابة الوقت:

قال: " أعظم هذه الإصاعات إصاعتان، بل إن هاتين الإصاعتين تجمعان كل هذه الإصاعات: إصابة القلب، و إصابة الوقت".

إصابة القلب في إيثار الدنيا على الآخرة، و من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، وإصابة الوقت من طول الأمل، والله الذي لا إله إلا هو كنت مدرساً في التعليم الثانوي، و نشأت معى ساعة فراغ فجأة، لأن الطلاب أخذوا إلى مادة التدريب على الرمي، فأين أمضى هذه الساعة ؟ قلت: أمضيها عند المدير، المدير صديقي، جلست عنده ساعة درسية خمسين دقيقة، حدثني حديثاً طويلاً ممتعاً بالنسبة إليه، ماذا سيفعل في العشرين سنة القادمة ؟ قال لي: أولاً: أنا وافقوا لي على أن أكون معاراً إلى الجزائر، هذا كان نظام الإعارة في التعليم، يعطي ضعف راتبه، قال لي: سابقى هناك

خمس سنوات، و لن آتي إلى الشام في هذه الخمس، قال لي: سوف أمضي الأربع عطل صيفية، قال لي: عطلة في فرنسا، عطلة في إسبانيا، عطلة في إنكلترا، و عطلة في إيطاليا، قال لي: أريد أن أتعرف إلى هذه البلاد، وإلى متاحفها، و إلى معالمها السياحية، و إلى آثارها، هو اختصاصه فلسفه متفوق، قال لي: بعد هذه السنوات الخمس سأتي إلى الشام، و سأقدم استقالتي، و سأشترى محلًا تجاريًّا لأبيع به التحف، قال لي: هذه لا علاقة لها بالتمويلين، و لا يصيبيها عطب، وأجعل من هذا المحل التجاري منتدى فكريًّا لأصدقائي، أولادي يكثرون يديرون هذا المحل، و أنا أظل عليهم من حين إلى آخر، والله تابع الحديث خمسين دقيقة، و أنا أعجب من هذا الأمل البعيد، وانتهى اللقاء، و ذهبت إلى البيت، و في مساء ذلك اليوم اضطررت أن أصل إلى مركز المدينة، و قررت أن أعود إلى البيت مشيًّا من أجل الرياضة، و أنا في الطريق قرأت نعوته في اليوم نفسه والله، فإصابة الوقت بطول الأمل، كل إنسان يوجد بيده آمال تحتاج إلى أربعين سنة، ثلاثين سنة، يكون كفه قد نسج، وقبره حفر، بقي التنفيذ؟

قال: " و أعظم هذه الإصاعات إصاعتان، هما أصل كل إصاعة، إصاعة القلب، و إصاعة الوقت، فإن إصاعة القلب في إيثار الدنيا على الآخرة، و إصاعة الوقت من طول الأمل، فاجتمع الفساد كله في اتباع الهوى و طول الأمل، والصلاح كله في اتباع الهدى، والاستعداد لقاء الله عز وجل ". الذكاء كل الذكاء، و العقل كل العقل، و الفلاح كل الفلاح، و النجاح كل النجاح، والتفوق كل التفوق في اتباع الهدى، و الاستعداد لقاء الله عز وجل.

ولا يوجد أعلم من إنسان يستعد لساعة لابد منها هي ساعة الموت:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَثُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)

[سورة الصاف: الآية ٢]

الآية الكريمة:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِبَيْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك: الآية ٢]

و أختتم هذا الحديث أيها الإخوة الكرام بأن طالباً نال الدرجة الأولى في الشهادة الثانوية سئل: ما أسباب التفوق؟ قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر مخيلتي طوال العام، و الآن أكبر واحد ينجح فيما هو الذي لا تفارق لحظة الموت، و السؤال من قبل الله: لماذا فعلت؟ لماذا قطعت؟ لماذا وصلت؟ لماذا أعطيت؟ لماذا منعت؟ لماذا غضبت؟ لماذا لم تغضب؟ لماذا طلقت؟ لماذا فعلت ما فعلت؟ أنت حينما تققر دائمًا كيف سأجيب الله عن هذا العمل، تكون من الفالحين. إذاً أعظم إصاعتين إصاعة القلب وإصاعة الوقت، وإصاعة الوقت هو الموت، و إصاعة الوقت من المقت، فأسأل الله سبحانه و تعالى أن ينجينا من إصاعة القلب، وإصاعة الوقت.

قال: "العجب من تعرض له حاجة"، نشأ عنده مشكلة فيصرف رغبته و همته إلى الله ليقضيها له، و لا يتصدى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل، و الإعراض، و شفائه من داء الشهوات و الشبهات.

إذا كانت القضية دنيوية، يصلى قيام الليل، و يلح في الدعاء من أجل أن تحل، وإذا كانت قضية متعلقة بقلبه، بصلاته، بآيمانه، لا يلتقت لها، لا يلتقت إلا إلى القضايا المادية.

والحمد لله رب العالمين